

مكانة الأمثال في الأدب العربي

سيد إسماعيل حسيني أجداد*

الملخص

الأمثال فن بياني يقرب المراد إلى العقول، ويثبت المعاني في النفوس لأجل إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وتقريب المحسوس إلى المعقول، واكتساب صفة الشبوع؛ ولهذا تسامى هذا اللون البديع في الأدب العربي، وأصبح حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وحمل بين ثناياه جوانب شتى من التراث الفكري والاجتماعي. المثل يحتفظ بصورته المنطوقة المرسلة، ولا يتغير بل يجري كما جاءت عن العرب، وغرضه التنويه على العواقب المحموده والمذمومة في حالة التعرض للأسباب المؤدية إلى تلك العواقب، ولذلك كثرت الأمثال القصصية والقياسية في الأدب العربي خاصة في الأدب الجاهلي، وشاعت في بيئة العرب، وعلى سجيتهم لاكتساب الآداب البارعة في صورة تمثيلية وحملها على الإدراك.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
رتال جامع علوم انسانی

الكلمات الدليلية: الأمثال، الأدب العربي، الإيجاز، الشبوع، التراث الفكري، الأدب الجاهلي، القصصية، التمثيلية.

* عضو هيئة التدريس بجامعة كيلان - أستاذ مساعد.

seydesmail_hoseyniajdadi@yahoo.com

تاريخ القبول: ۱۳۹۰/۹/۲ هـ. ش

تاريخ الوصول: ۱۳۹۰/۶/۲۶ هـ. ش

المقدمة

الأمثال فن بياني يقرّب المراد إلى العقول، ويشب المعاني في النفوس، ويرفع الغشاوة عن الحقائق، وي طرح ما يغفلها من أوهام وظنون؛ ويشتمل مضمونه على مقاصد شتى تنفذ إلى أعماق الجوانب الإنسانية بعد أن يرسخ قوائمه في الأذهان، فيفصح المضمون عن معاني التقرير والترغيب والاعتبار والزجر والثواب والعقاب.

عندما نتبع الأمثال في العربية ندرك ونتأكد من تسامى هذا اللون البديع، وارتقائه مراتب الفصاحة المعهودة عند العرب. فقد عهدت عند العرب شروط وضعوها للمثل الفصيح وحددوها في إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وجودة الكتابة، فإن لم تتوفر هذه الشروط للمثل عندهم، لا يعدّ فصيحاً.

معنى المثل لغة

المثل في اللغة يطلق على الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً، فيجعل مثله يقال تمثل فلان: ضرب مثلاً وتمثّل بالشيء؛ ضربه مثلاً والمثل والمثيل كالمثل والجمع أمثال. (ابن منظور: مادة مثل) قال الله تعالى: ﴿الله المثل الأعلى﴾ (النحل: ٦٠) يريد إنه سبحانه أمر عباده بتوحيده ونفى كل إله سواه. فالمثل الأعلى التوحيد الخالص والصفات الإلهية العليا التي لا ينازعه فيها أحد سبحانه.

المثل بكسر الميم الشبه، يقال مثل ومثيل وشبه وشبيه بمعنى واحد قال الله عز وجل: ﴿ليس كمثل شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١) أراد ليس كذاته شيء، فالنفي المطلق يؤكد على حقيقة وحدانيته وينزهه عن النظير والمثيل.

سبب تسميته

«إنما سمى المثل مثلاً لأنه مائل بخاطر الإنسان أبداً أي شاخص فيتاسى به، ويتعظ ويخشى ويرجو ويأمر ويزجر.» (ابن رشيق، ١٩٨١م، ج ١: ١٨٩)

يقول راغب الأصفهاني: «المثل عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي

معنى كان وهو أعمّ الألفاظ الموضوعّة للمشابهة.» (راغب: مادة مثل)

قال الزمخشري: «أصل المثل في كلام العرب معنى المثل وهو النظر، لقال، مثل ومثل ومثيل، كشبهه وشبهه وشبيهه.» (الزمخشري، لاتا: مادة مثل) هذا هو الرأى الذى قال به ابن منظور إذا عدّ المثل والمثل بمعنى واحد ويراد بها معنى التسويه. فالمشابهة فى المثل قد يكون من عدة وجوه، كما رأى الأصفهانى فى رأيه المتقدم، وقد تكون المشابهة متساوية للنظير كما ذهب إلى ذلك الزمخشري وابن منظور.

وقد يفهم ويراد من المثل معان أخرى ذكرها الأدباء؛ منها الوصف والنعته. (الحسيني، ١٣٨٧ش: ٤٢٣) وقد ورد هذا المعنى فى قول الله تعالى عند المفسرين فى الآيتين على الأقل: ﴿سِيمَاهُمْ فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل﴾ (الفتح: ٢٩) وقد فسّر المثل بمعنى الوصف فى هذه الآية. (الزمخشري، ٢٠٠٨م، الجزء الرابع: ٣٤٩؛ والطبرس، ١٣٨٨ش، الجزء الخامس: ١٥٥)

وقد جاء بمعنى الوصف فى آية: ﴿مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار﴾ (الرعد: ٣٥) أيضا فى رأى المفسرين. (خرمدل، لاتا: ٦٠٧؛ وأيضاً سبحانى، ١٣٨٦ش: ١٠)

وأنكر هذا المعنى أبو على الفارسي، ولكن الزركشى أثبتتها فى كتابه المسمّى بالبرهان. (زركشى، لاتا، ج ١: ٤٩٠)

والتمثال الصورة المصورة، والجمع التماثيل وفى ثوبه تماثيل أى صور حيوانات مصورة. ومثل له الشئ صورّه، حتى كأنه ينظر إليه امتثله هو تصوّره. ومثلت له كذا تمثيلا إذا صورّت له مثاله بكتابة، وغيرها. (المصباح المنير: مادة مثل)

فالأصل فى مادة "مثل" كما نرى إنها مستعدّة من دلالة حسية تتعلق بالشخوص والأشكال المنحوتة والصور والرسوم وغيرها ثمّ اطلقت الكلمة على القول المغضب المشهور الذى تتداوله ألسنة الناس. (ميرزا محمد، ١٣٨٨ش: ١٦٤) وينزل بموقع فى أذهانهم لفشوه وانتشاره فيصير فى أفضليته وبيانه كالعلامة أو الشاهد الذى يقاس عليه فكأنه يجعل مقياسا لغيره. ويبرز من خلال الشئ المصور معنى المشابهة والمشكلة ولهذا نرى

اللفظ يرد على معنى الشبيه والنظير وهو المستفاد من التصوير.
قد اشتق العرب من المادة لفظاً يؤدي معنى القصاص أى العقاب بالمثل، وأطلقوا عليه
”المثال“ بكسر الميم، وامتل منه أى اقتصّ وأخذ المثال بمعنى القصاص. (الزمخشرى،
لاتا: مادة مثل)

فقاسوا على إقامة الحدّ، ورأوا فى ذلك معنى المشابهة والمشاكله وذلك بأن يجعل
شخص نظير شخص آخر فى القتل فيقتل كفؤاً بكفاء (نفسه) ومن ثمّ فقد أطلقوا على
القصاص لفظة ”المثال“ والتمثيل بالقتلى مأخوذ من هذه الكلمة كما نهى النبى (ص) عن
أن يمثّل بالدواب وأن يؤكل الممثول بها. (المجلسى، ١٤٠٤ق، ج ٤٢: ٣٢٩)

لا عجب أن نرى العرب يتبارون فى المكاشفة عن روائع الأسرار اللغوية من خلال
تلك الأمثال وإنّما قصدوا بذلك أن ينبّهوا إلى ما تتميز به تلك الأمثال من سمو البلاغة
وبديع البيان وقد سبروا أغوارها وأدركوا جمالها وحسن تقسيمها وهم المتذوّقون لمعاني
الفصاحة التى يحويها تراثهم الأصيل. عندئذ كثر الأمثال دورانها على ألسنتهم، وألفوا
سماعهم وسهل عليهم حفظها لاجتماع ضروب البيان فيها كما ذكرت ولم يكن هناك
عائق أو ضروب يكتنفها فنزلت إليهم فى بيئتهم الاجتماعية، واحتلّت مكانة كبيرة بينهم
بل إنها سبقت غيرها من الألوان الأدبية فى الشيوخ والانتشار وسائر فنون اللغة كالشعر
والخطابة وبالتالي تيسّر لديهم أمر حفظها وتدوينها.

مكانة الأمثال عند الأدباء

قال أبو عبيد: «الأمثال حكمة العرب فى الجاهلية والإسلام وبها كانت تعارض كلامها
فتبلغ به ما حاولت من حاجاتها فى المنطق بكناية غير تصريح فيجتمع لها بذلك ثلاث
خلال: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وقد ضربها النبى (ص) وتمثّل بها هو
ومن بعده من السلف.» (السيوطى، لاتا، ج ١: ٤٨٦)

ويؤكّد بأنّ المثل السائر يحوى تلك الجوانب الرفيعة التى هى أروع ضروب البيان،
ويوافقه فى هذا ما قاله إبواسحاق النظام: «يجتمع فى المثل أربعة لاتجتمع فى غيره من

الكلام: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة.»
(ابن القيم الجوزية، لاتا: ٣٣)

يقصد أبو عبيد بقوله "كناية غير تصريح" ما تتميز الأمثال العربية القديمة من جلاء الفكرة والبراعة في تحديد المضمون من غير إسهاب في العرض أو تكرار يفضى إلى الخلل والقصور فهي تعتمد على الإشارة الخاطفة التي يتوفّر معها الإيجاز في اللفظ والإصابة في المعنى والبراعة في التقسيم ولذلك كانت تلك الأسس من مستلزمات أمثالهم وبها تبلغ ذروة البيان.

عرّف الفارابي المثل بقوله: ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذله فيما بينهم وفأهوا في السراء والضراء ووصلوا به إلى المطالب القصية وتفرجوا به عن الكرب والمكروبة وهو من أبلغ الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في التفاسرة. (السيوطي، لاتا، الجزء الأول: ٤٨٨)

أما النادرة فحكمة صحيحة يؤدي عنه المثل إلا أنها لم تشع في الجمهور ولم تجر إلا بين الخواص، وليس بينهما وبين المثل إلا الشبوع وحده. عبارة الفارابي توحى بمدى الاهتمام الذي بذله العرب نحو الأمثال، وتدل على شيوعها الكثير واستحواذها على غالب فنونهم النثرية والشعرية إلى درجة إطلاقها في مجالسهم ومنتدياتهم وحروبهم وأفراحهم وأتراحهم، فهي منبثقة عن الواقع الاجتماعي والظروف التي كانوا يمرون بها في بيئتهم، فكم نرى قد عولوا عليها واتخذوا منها متنفسا بالشدائد والحوالك التي تباغتهم، وفي اجتماعهم عليها والاعتداد بها ما ينوّه على جودتها ونفاستها وسمو مكانتها لديهم.

قال الزمخشري: «الأمثال قسارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادير حكمها، وبيضة منطقتها، وزبدة حوارها وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة والركن البديع إلى دراية اللسان حيث أعجزت اللفظ وأشبعت المعنى وقصرت العبارة وأطالت المغزى ولوحت فأغرقت في التصريح وكنت وفأغنت عن التصريح.» (الزمخشري،

١٩٨٧م، الجزء الأول: ٢)

إن تمثيل المعنى المجرد يجعل له وقعا في النفس إذ تستخدم النفس أكثر من وسيلة لاستيعاب هذا المعنى بعد اقترانه بشيء محسوس، فالمحسوس يقرب المعقول إلى الأذهان والقلوب. إذن «لضرب المثل شأن لا يخفى ونور لا يطفأ، يرفع الأستار عن وجوه الحقائق ويبرز المتخيل في معرض اليقين ويجعل الغائب كأنه شاهد وربما تكون المعاني التي يراد تفهيمها معقولة صرفة، فالوهم ينازع العقل في إدراكها حتى يحجبها عن اللّحوق بما في العقل فبضرب الأمثال تبرز في معرض المحسوس، فيساعد الوهم العقل في إدراكها، وهناك تنجلي غياهب الأوهام ويرتفع شغب الخصام.» (الآلوسی، ١٩٧٨، ج: ١، ١٦٣)

قال المرزوقي في معنى المثل بأنها جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلّة بذاتها، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كلّ ما يصلح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها وعمّا يوجبها الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها واستجيز من الحذف في مضارع ضرورات الشعر فيما لا يستجاز في سائر الكلام. (السيوطي، لاتا، ج: ١، ٤٨٦)

هذا معناه أن المثل يظل محتفظا بصورته المنطوقة المرسلّة من غير حصول تباين أو تفاوت بين أجزائه المركبة في إيجازها وحسن تقسيمها وهو مع ما يتضمّنه من شدّة الإيجاز إلا أنه يتّسم بالقبول عند التلفّظ به فلا تمجّه الآذان لبراعته وجودة بيانه، وإذا جعل الكلام مثلا كان آنقا للسمع وأوضع وأعذب للنفس أن تدرك كنه فصاحته وأوسع لشعوب الحديث.

إذن الأمثال لا تغير بل تجرى كما جاءت عن العرب، فالأمثال يتكلم بها كما هي فليس لك أن تطرح شيئا من علامات التأنيث في «أطريّ فإنك ناعلة» وهكذا جميع الأمثال لا يجوز تغييرها، ويجب على طبّها. (الزمخشري، ١٩٨٧، الجزء الأول: ٤)

فالحاصل أنه يشترط في المثل أن يكون كلاما بليغا شائعا مشهورا أو مشتتلا على حكمة بالغة فيه مبالغة في البيان والكشف، فالقرآن الكريم نهج العرب في أساليبهم فضرب الأمثال التي تجلى المعاني أتمّ جلاء، وتحدّث في النفوس من الأثر ما لا يقدر

قدره ولا يسبره غوره.

قدمة الأمثال

يمكن أن نعدّ الامثال من بقايا أقدم النثر العربي لما يبدو أنّ بعضها كان سائرا مشهورا في الجاهلية وكثيرا ما تشير هذه الأمثال إلى أحداث ووقائع معينة حصلت قديما ولكنها انطوت في زوايا النسيان بيد أن من عنوا بجمعها من الأدباء لم يقفوا مرة في حيرة من تفسيرها وإيضاحها ولكن ما روى في هذا التفسير ليس أجدر بالثقة من قصصهم في شرح الأبيات المبهمة، وبالتالي يمكن القول بأنّ فن التأثير بالكلام المتخير، الحسن الصياغة والتأليف في أفكار الناس وعزائمهم قد ازدهر عند العرب الجاهلية وأن هذا الفن قد اشتمل أيضا على بذور النمو الأدبي المتأخر. (بروكلمان، لاتا، ج: ١: ١٢٩)

من جانب آخر يمكننا أن نقول بأن العرب يتميزون بأمثالهم المبنية على الحوادث أى المناسبات والأحوال التي كانوا يمرون بها والأمثال عندهم نوعان:

١. أمثال حكمية كقولهم «الجار ثم الدار» و«الحرب خدعة» و«العتاب قبل العتاب» ونحوها مما يتناقله الناس في الأعقاب وترويهما الأمم بعضها عن بعض وأقدم مجموع لها أمثال سليمان وأكثر الأمم قد أخذت عنها. وهى عند العرب مقتبسة من التوراة وأمثال الهند والفرس والروم. فضلا عما يروونه عن أسلافهم وحكمائهم كأكنم بن صيفى، وغيره، وينسبون أمثالا كثيرة إلى لقمان الحكيم. (زيدان، لاتا، ج: ١: ٥٦)

٢. الأمثال المبنية على الحوادث خاصة بالعرب لأن الحوادث جرت لهم كقولهم: «قطعت جهيزة قول كل خطيب والصيف ضيعت اللب» وهم يؤثرون تلك الأمثال عن قائلها. (ابن الأثير، لاتا، ج: ١: ٥٣)

النوع الأول من الأمثال العربية يجرى مجرى الحكمة، وأحيانا يأخذ صورة النكتة الأدبية البارعة ويقصر في جملته على عدد معلوم من الألفاظ وقد كان العرب يتغنون بهذه الآداب البارعة، ويؤثرون الاستشهاد بها في المواطن التي تتطلب ذلك. أما الأمثال المبنية على الحوادث فهي منتزعة من الواقع الاجتماعى الذى ألفه العرب واشتمل على

بيئتهم فكثرت ذكراها في المحافل والمنتديات وكانوا أحفظ لها وأعلم بمن تنسب إليه.

أقوال الحكماء التمثيلية في الجاهلية

المثل السائر في كلام العرب كثير نثرا ونظما، وأفضله أجزه، وأحكمه أصدقه، وقولهم مثل شرود أى سائر لا يردّ، وزعم قوم أنّ الشرود ما لم يكن له نظير كالشاذ أو النادر، فأما قول أبى تمام وكان إمام الصنعة ورئيسها:

لا تتكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا فى الندى والبأس
فأله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

(أبوتمام، ٢٠٠١م: ٤٠٢)

حين عيب عليه قوله فى ابن المعتصم الخليفة العباسى:

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

(نفسه)

فإنه يشهد للقول الأوّل لأنّ المثل بعمرو وحاتم مضروب قديما وليس بمثل لا نظير له. (القيروانى، ١٩٨١م، الجزء الأوّل: ٢٨١)

إنّما سمى المثل المشهور سائرا لفشوه وكثرة تناقله وتداوله على السنة الناس، وينبغى لنا فى هذا الصّدّد أن نعرض نموذجا من الشّواهد النثرية فى الأمثال العربية القديمة فى الجاهلية والإسلام.

نبدأ بالحكمة العربية فى آدابها العالية التى تشفّ عن صفاء الفكر وسلامة الذوق، يقول أكثم بن صيفى الحكيم المشهور: «فضل القول على الفعل دناءة وفضل الفعل على القول مكرمة.»

فقد ذمّ المبالغة فى القول من غير نية العمل وأثنى على الفعل المصحوب بالاجتهاد. وله فى الآداب الاجتماعية: «المناكح الكريمة من مدارج الشرف والوقوف عند الشبهة خير من اقتحام الهلكة، وربّ صباية غرست لحظة. وربّ قرب شبت من لفظة، وربّ كلمة سلبت نعمة، وربّ ملوم لا ذنب له، ورضا الناس غاية لا تدرك.» فقد جمعت كلماته



مأثور القول وشملت جوانب الفصاحة.

من بديع ذلك في الأمثال السائرة قول قسّ بن ساعدة: «من مات فات، وكلّ ما هوّات آت. إن في السماء لخبراً وفي الأرض لعبراً. تقاربوا بالمودّة ولا تتكلّوا على القرابة. خير المال ما قضى به الحق وأحمد البلاغة الصمت حين لا يحسن السكوت، وأبلغ العظات النظر إلى محلّ الأموات.» أحسن ما في هذه الحكم أنها تعبر عن المعاني الكثيرة والفوائد الجمة بالألفاظ القليلة وهو ما سارت عليه الأمثال في الجاهلية.

قد اشهر قسّ بن ساعدة عند العرب وضربوا به المثل في الخطابة وسمو البيان فقالوا في ثنائهم على أهل الفن «أبلغ من قسّ» وذكروا عنه أنه أول من كتب «من فلان إلى فلان» وأول من قال «أمّا بعد» وأول من قال «البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر» وقد عمّر مائة وثمانين سنة. (البغدادي، لاتا: ٢٦٨)

هكذا امتزجت حكمه نثراً ونظماً بطابع الزهد واليقين بالحساب والمكاشفة بالأعمال وكلامه صادر عن وجدان الصادق يجيش بأبلغ المواعظ، وينطق بالتذكرة الواعية التي جعلته أهلاً لنيل مكانة سامية بين قومه في البيان.

يمكننا هنا أن نعرض نموذجاً من الشواهد الشعرية من نوع الأمثال المنظومة لأن الأبيات السائرة لشعراء العرب سطعت ولمعت ببديع الحكمة وجرت على ألسنة الناس مجرى الأمثال وأدرجت في عداد الألوان البديعية الأدبية عند ما توفرت فيها شروط الفصاحة والواقع أن الأبيات الشعرية تكاد تنحصر في الشعراء المعروفين على مر العصور، وهم الذين لاقت أشعارهم رواجاً واسعاً في ميدان الأدب وتناقلتها الأجيال إلى أن أخذت مكانها في ذخائر العرب وتراثهم الأصيل.

من أفضل الأشعار التمثيلية التي يتمثل بها من أشعار الجاهلية المستحسنة قول زهير ابن أبي سلمى:

ومن لا يكرّم نفسه لا يكرّم	ومن يغترب يحسب عدواً صديقه
وإن خالها تخفى على الناس تعلم	ومهما يكن عند امرئ من خليقة
يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم	ومن لم يصانع في أمور كثيرة

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

(ابن ابى سلمى، ٢٠٠٣م: ١١١)

لقد جمعت هذه الأبيات للقيم العربية في صورتها المثلى وخاطبت المجتمع العربي بلسان الحكمة الواعية، وقد تعددت في أساليبها الخبرية المقرونة بالشرط والجزاء الذى يترتب عليه حرصا على تدعيم هذه القيم، وغرسها في نفوس قومه، وتوحيها على عواقب الأمور. فالأخبار المتوالية تنبيه، وتقوم على التبصير بأهمية الأواصر الاجتماعية، ويغلب عليها النصح والإرشاد فهو يذكر بالمعروف والكرم والشجاعة والأنفة ونجدة الصريح إلى غير ذلك مما تشتمل عليه الأبيات من بديع الحكمة العربية وفي هذه الأخبار يطلق الحقائق لتسرى في النفوس ولهذا أكثر تكرار الموصول الشرطى «من» وأراد به مطلق العموم على سبيل الحث والترغيب فى التمسك بهذه الأصول.

وأبدع ما ذكره عن مصير الإنسان المحتوم، التشبيه البليغ فى قوله «أسباب المنايا» والأسباب بمعنى النواحي وإنما عنى بها من يناله كراهة لأن المنايا تنال من يهاب ومن لا يهاب، ومفردها منية وهى الموت ونظير هذا قوله تعالى: قل إن الموت الذى تفرّون منه فإنه ملاقيكم B والموت يلاقى من فرّ ومن لا يفرّ وقصد زهير قطع أسباب الفرار من الموت لأنه حق قضى به على كل نفس.

ومن الأمثال السائرة المنسوبة إلى زهير:

إنّ الحقّ مقطّعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

(ابن ابى سلمى، ٢٠٠٣م: ١٨)

يريد إن الحق إنما يصحّ بواحدة من هذه الثلاث: يمين أو محاكمة أو حجّة واضحة فليس بغريب أن نتعجب من معرفته بمقاطع الحقوق. سمي زهير «قاضى الشعراء» بهذا البيت، وهذه الثلاث على الحقيقة هى مقاطع الحق كما قال، على أنه جاهلى وقد وكّدها الإسلام. (القيروانى، ١٩٨١م، الجزء الأول: ٥٥) ومن الأمثال المنسوبة إلى امرئ القيس:

الله أنجح ما طلبت به والبر حقيبة الرجل

(امرؤ القيس، ١٩٨٩م: ٣٦١)

يقال في صدق التوكل والثقة بالله عز وجل وصور البر بشيء محسوس له قيمته بالنسبة للإنسان، وعليه اقتناؤه فهو دخر ثمين.
وله في القناعة والرضا:

وقد طوّفت في الأفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

(امرئ القيس، ١٩٨٩م: ٣٨٩)

الأمثال الرمزية

يقصد بالمثل الرمزي ما اخترع على لسان الحيوان أو الجماد ويصاغ في قالب قصصي وأسلوب خاص يراد منه تقرير الوقائع التي تمس حياة الإنسان وتبصيرهم بعواقب الأمور، وبالتالي فهو يحقق غرض التأثير ويصحبه الحث والإغراء كما يصحبه الزجر والتنفير تبعاً للمضمون القصصي والحدث المرموز له ولنا في هذا الصدد أن نستشهد بأحد الأمثلة الرمزية لنستنبط بعض خواصها وأغراضها:

«كيف أعادك وهذا أثر فأسك.» (الميداني، ١٣٦٦ش: ٩١) وهذا المثل الرمزي يضرب لمن لا يفي بالعهد وينقض المواثيق وأصله ما حكته العرب على لسان الحية أن أخوين كانا في إبل لهما فأجذبت بلادهما وكان بالقرب منها واد خصيب وفيه حية تحميه من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي الممتلىء فرعيت فيه إبلى وأصلحتها؛ فقال له أخوه: إنني أخاف عليك الحية. ألا ترى أن أحدا لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته. قال فوالله لأفعلن. فهبط الوادي، ورعى فيه إبله زماناً ثم إن الحية نهشته فقتلته. فقال أخوه: والله ما في الحياة بعد أخي خير فلا تطلبنّ الحية ولا تقتلنها أو لأتبعن أخي. فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها فقالت له الحية: ألسنت ترى أني قتلت أخاك؟ فهل لك في الصلح، فأدعك بهذا الوادي تكون فيه وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت؟

قال: أفاعلة أنت؟ قالت: نعم. قال أنى أفعال. فحلف لها وأعطها الموائيق لا يضرها وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً، فكثرت ماله حتى صار من أحسن الناس حالاً ثم إنه تذكر أخاه فقال: كيف ينفعنى العيش، وأنا أنظر ألى قاتل أخى؟
فعمد إلى فأس فأخذها ثم قعد لها فمّرت به فتبعها فضربها فأخطأها ودخلت الجحر، ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها، فأثرت فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار. فخاف الرجل شرّها وندم فقال لها: هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقال كيف أعاودك وهذا أثر فأسك؟

المثل كما ترى تتضمّن مبالغة واضحة ولعل الإغراق فى الخيال قد أحاطه لتلك المبالغة وهو من خصائص التعبيرات الرمزية فى تلك الأمثال وقد اثبتق هذا المثل عن البيئة الرعوية حيث الإبل والوادي الخصب ومتطلّبات السعى وراء تلك المروج فى حاله حصول الجذب.

من جانب آخر لا يخلو هذا المثل من جوانب إنسانية تتعلّق بما كان يعدّ عند العرب أصيلاً كالنخوة العربية والشهامة التى تتطلّب الاقتصاد من الظالم إلى جانب تقديم المشورة والجلد فى مواجهة النوازل وتحطيم قيود الصحاب والمثابرة فى بلوغ المراد إلى غير ذلك من الأغراض التعليمية التى يمكن استخلاصها من خلال المثل.

ومن الأمثال الرمزية الأخرى فى هذا الصدد «لأحبّ تخديش وجه الصاحب»؛ الذى يضرب للرجل الذى يريك من نفسه النصيحة، ثم يغدر. وشرح المثل أن الثعلب رأى حجراً أبيض بين لصبين، فأراد أن يغتال به الأسد، فأتاه ذات يوم فقال: يا أبا الحارث! الغنيمة الباردة، شحمة رايتها بين لصبين، فكرهت أن أدنو منها، وأحببت أن تولى ذلك أنت فهلّم لأربكها، فانطلق حتى قام به عليه. فقال دونك يا أبا الحارث، فذهب الأسد ليدخل فضايق به المكان. فقال له الثعلب: ادفع برأسك، فأقبل الأسد يدفع برأسه حتى نشب فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخّر ثم أقبل الثعلب يخوره أى يخدش خورانه من قبل دبره، فقال الأسد ما تصنع يا ثعالة؟ قال أريد لأستنفذك، قال فمن قبل الرأس إذن فقال الثعلب: «لأحبّ تخديش وجه الصاحب.»

قد اختاروا التمثيل بالثعلب في تدبير الشرّ لغلب مكره وشدّة حيله ورمزوا به إلى كل غادر لا يتورع عن تدبير الكيد، وصنع السوء، ولومع الكبراء فإذا كشف عن نية غدره لجأ إلى تبرير موقفه، وإقصاء التهمة عنه بأسلوب الحيلة والمخادعة، وهذا ما يعدّ من شرار الخلق وأشدّهم خطرا لانطوائه على الخبث والرذيلة.

هكذا كثر دوران تلك الأمثال الرمزية على ألسنة العرب للغرض التعليمي من تقديم نصيحة غالية أو عرض مشهورة نافعة أو اتباع رأى سديد يهدف إلى التحرّر من قيود اليأس عند تأزم المواقف وإيجاد الوسائل الفعّالة لمواجهة ما يعرض لهم من ظروف عصبية تسلتزم الحكمة الواعية في التخلّص والمدافعة، ولذلك كانت الأمثال الرمزية القصصية، تنتهي إلى غاية واحدة تبرّر مجرى أحداث وظهورها على كيفية خاصّة، ولا تخرج تلك الغاية عن الأمور تتعلّق بواقعهم الاجتماعي، وتلزمهم بالنسبة والصحة لما يتوقّعون وما لا يتوقّعون.

الهدف من الأمثال

إن العرب قد أبدوا اهتماما ملحوظا بالأمثال السائرة عن أسلافهم لما تحويه من ألفاظ فصيحة وخصائص لغوية وبيانية رفيعة. فعلى هذا، علماء العرب والأدباء لا يزالون يضربون الأمثال ويبينون للناس تصرّف الأحوال بالنظائر والأشبهاء والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبا وأقرب مذهبا ولذلك قال الله تعالى: ﴿لقد صرّفنا في هذا القرآن من كل مثل﴾ (الإسراء: ٨٩) أو قال الله في جانب آخر ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ (إبراهيم: ٤٥) إنّما فعلت العلماء ذلك لأنّ الخبر في نفسه إذا كان ممكنا فهو يحتاج إلى ما يدلّ عليه وعلى صحّته؛ والمثل مقرون بالحجة والبرهان.

قد جعلت القدماء أكثر آدابها وما دوّنته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسنة الوحش والطير، وإنّما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمونة إلى نتائجها، وتصريف القول فيها حتى يتبين لسامعيه

ما آلت إليه أحوال أهلها عند لزوم الآداب وتضييعهم إياها. لعلّ في ضرب الأمثال وقصص الأقاويص عمّن سلف في الأمم الغابرة ممّن آثر هواه وخسر دينه ودنياه، تحقيق العبرة وسوق التذكرة لمن يؤثر رضا الله ويرجو أن يختم على خير وتحمد عقباه قال الله تعالى: ﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلّهم يتذكرون﴾ (القصص: ٥١)

لقد بين الهدف من الأمثال في بعض الآيات؛ قال الله: ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكرون﴾ (إبراهيم: ٢٥)؛ «تلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكرون»؛ «تلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» (عنكبوت: ٤٣) إذن يمكننا استنتاج ثلاث مراحل لتأثير الأمثال على النفوس. المرحلة الأولى: مرحلة التذكر وهي مرحلة مرور حقيقة الخطاب الإلهي في الذهن، والمرحلة الثانية: مرحلة التفكير في موضوع المثل وحكمته، والمرحلة الثالثة: مرحلة التعقل وهي مرحلة الإدراك وهضم الحقائق. (مكارم شيرازي، ١٤٢٩ق: ١٦)

فعلى هذا ضرب العرب الأمثال، واستحضر العلماء المثل والنظائر، لأنه له شأن ليس بالخفي في إبراز خفيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض اليقين والغائب. كأنه مشاهد وفيه تبيكيت للخصم الألد وقمع لصورة الجامع الأبى ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين أمثاله وفشت في كلام رسول الله وكلام الأنبياء والحكماء. (الزمخشري، ٢٠٠٨م، ج: ١، ١٠٩)

النتيجة

المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها تشتهر بالتداول فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصلح قصده بها من غير تغيير لفظها فعلى ما ذكرنا في هذا المقال وصلنا إلى النتائج التالية:

١. الأمثال فن بياني، وهو يقرب المراد إلى العقول ويثبت المعاني في النفوس ويرفع الغشاوة عن الحقائق.

٢. الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتجتمع لها أربعة شروط: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة.

٣. يشترط في المثل أن يكون كلاما بليغا شائعا مشهورا أو مشتقلا على حكمة بالغة فيه مبالغة في البيان والكشف. فبضرب الأمثال تجلّى المعاني أتمّ جلاء وتحدّث في النفوس من الأثر ما لا يقدر قدره ولا يسبره غوره.

المصادر والمراجع

الآلوسی، شهاب الدین. ١٩٧٨م. روح المعانی. المجلد الأول. بیروت: دار الفکر.
ابن أبی سلمی، زهیر. ٢٠٠٣م. الديوان. تحقیق علی الفاعور. الطبعة الثالثة. بیروت: دار الکتب العلمیة.

ابن الأثیر. لاتا. المثل السائر فی أدب الكاتب والشاعر. تحقیق الدكتور أحمد الحوفی والدكتور بدوی طبانة. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

ابن القيم الجوزیة. ١٩٨١م. الأمثال فی القرآن الکریم. تحقیق سعید محمد نمر الخطیب. بیروت: دار المعرفة.

ابن منظور. ١٤٠٥ق. لسان العرب. قم: نشر أدب الحوزة.

أبوتمام. ٢٠٠١م. الديوان. شرح خطیب القزوينی. المجلد الأول. بیروت: دار الفكر العربي.

امرؤ القیس. ٩٨٩م. الديوان. تحقیق حنا الفاخوری. بیروت: دار الجیل.

بروکلمان، کارل. لاتا. تاریخ الأدب العربي. ترجمة الدكتور عبدالحلیم النجار. الطبعة الثانية. قم: دارالکتب الإسلامی.

البغدادی. لاتا. خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب. بیروت: دار صادر.

الحسینی، السید جعفر. ١٣٨٧ش. أسالیب البیان فی القرآن. الطبعة الأولى. قم: چاپ ونشر دفتر تبلیغات السلامی.

خرم دل، مصطفی. لاتا. تفسیر نور. چاپ اول. تهران: چاپخانه حیدری.

الراغب الأصفهانی، حسین بن محمد. لاتا. المفردات فی غریب القرآن. مكتبة نزار مصطفى الباز.

الزركشي، بدر الدين محمد. لاتا. البرهان في علوم القرآن. التحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

الزمخشري، جار الله. لاتا. أساس البلاغة. تحقيق عبدالرحيم محمود.

- _____ م. ١٩٨٧. المستقصى في أمثال العرب. الجزء الأول. بيروت: دار الكتب العلمية.
- _____ م. ٢٠٠٨. الكشف عن حقائق التنزيل. تحقيق عبدالرزاق المهدي. الطبعة الأولى. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- زيدان، جرجى. لاتا. تاريخ آداب اللغة العربية.
- سبحاني، شيخ جعفر. ١٣٨٦ ش. أمثال القرآن التعليمية. الطبعة الثانية. قم: مطبعة التوحيد.
- السيوطي، جلال الدين. لاتا. المنزه في علوم اللغة وأنواعها. دار إحياء الكتب الإسلامية.
- الطبرسي. ١٣٨٨ ش. مجمع البيان. چاپ اول. قم: انتشارات نور وحي.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي. ١٩٨٧ م. المصباح المنير. بيروت: مكتبة لبنان.
- القيرواني، ابن رشيق. ١٩٨١ م. العمدة في محاسن الشعر وآدابه وتقده. التحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. الطبعة الخامسة. بيروت: دار الجيل.
- مجلسي، محمد باقر. ١٤٠٤ ق. بحار الأنوار. بيروت: مؤسسة الوفاء.
- مكارم شيرازي، ناصر. ١٤٢٩ ق. أمثال القرآن. ترجمة تحسين بدرى. قم: دار النشر للإمام علي بن أبي طالب.
- الميداني. ١٣٦٦ ش. مجمع الأمثال. الجزء الثاني. مشهد: مؤسسة الطبع والنشر للآستانة الرضوية المقدسة.
- ميرزا محمد، علي رضا. ١٣٨٨ ش. أثر المثل القرآنية على أشعار الفيض، فصلية الأدب المقارن. جامعة آ زاد الإسلامية في جيرفت. السنة الثالثة. العدد التاسع.

- Alusi, Shihab-Eldin, rooh al maani, Volume I, Beirut, Dar Alfekr, 1978.
- Ibn Abi Salma, Zuhair, Diwan, investigation Faour, third edition ,Beirut, Dar Al kotob AlElmeie, 2003.
- Ibn al-asir, goes the proverb in the literature Registerer and poet, Dr. Ahmed alhoofi and Dr Tabana , Cairo, Egypt for revival house printing and publishing, the first part, without history.
- Ibn rashig girvani, the mayor of the charms of poetry, etiquette, and his criticism, the investigation Mohammed Mohiuddin Abdul Hamid, the fifth edition ,Dar Al-jeel, 1981.
- Ibn Qayyim aljoziee, Proverbs in the Holy Quran, achieving Saeed Mohammed Nimr al-Khatib, Dar Almarefat, Beirut, 1981.
- Ibn al manzoor, lesan al Arab , Qom, publish literature estate,. 1405
- Abutmam, Diwan, Al-Qazwini Khatib explained, Volume I, Dar Alfekr Arab, Beirut, First Edition, 2001.
- eMraeo al gais, Diwan, to investigate Hanna Fakhouri, Dar-al jeel ,Beirut,



First Edition, 1989.

Brokelman, Karl, history of Arab literature, translated by Dr .Abdul-Halim al-Najjar, second edition, Qom, Daralketab alsлами.

Baghdadi, khazanatol arab, loob lobab leSan-Arab, Dar Sader, first edition, without date.

Husseini, Mr. Jaffer, the methods of the statement in the Qur'an, the first edition, Qom, As advertising, publishing office, 1387.

Khorramdel, Mustafa, tafsir alnoor, printing, printer Heidari, Tehran, without date.

Raghib Isfahani, Hussein ibn Muhammad, in a strange vocabulary of the Qur'an, library Nizar Mustafa Baz, without date.

Zrkshy Badr al-Din Muhammad, proof of Science in the Quran, the investigation Mohamed Ibrahim Abulfazl , without date.

Zmkshry , jar allah, the basis of rhetoric, achieving Rahim Mahmoud ,without date.

_____ , alkashaf, to achieve the Mahdi Abdul Razak, the first edition, Beirut, Dar Al-Arab alehya, 2008.

_____ , Investigator in the likes of the Arabs, Part I, dar al kotob alarabeia ,Beirut, second edition, 1987.

Zidane, Georgi, history of Arabic literature, without date.

Subhani, Jafar Sheikh, the proverbs of Koran education, second edition, Qom, toohid Print,1386.

Suyuti, Jalal al-Din, almozher in the science of language and types ,dar alehia alkotob aleslameie , Part I, without date.

Altbrsy, majmae al Bayan, Qom, published by nooryahye, 1388.

Fayoumi, Ahmed bin Mohammed bin Ali, Almesbah al moneer, Lebanon's library, 1987.

Majlisi, Bihar Alanvar, Alvfa' Institute, Beirut, 1404.

Shirazi, Nasser, the proverbs of Quran, translation tahseen Badri, Qom, Dar alnashr Ali ibn Abi Talib , Third Edition, 1429.

Almydany, the compound of Proverbs, Moasaset printing and publishing of Astana Qods Razavi, Part II, 1366.

Mirza Muhammad, Ali Reza, Impact on the Quranic verses saying faiez, Quarterly Comparative Literature, Islamic Azad University of Jiroft, the third year, ninth issue, Spring 1388.